أنطوان إ. رفول*

لفتا في مواجهة التدمير النهائي والمحو**

خلفية

قليل عدد تلك القرى في فلسطين التاريخية التي تستحث ذاكرة النكبة كما تفعل قرية لفتا. فالقرية ذات المباني الجميلة المكسوة بالحجر المقدسي المشكل بمهارة، تحتضن منحدرات ممتدة على جانبي الطريق السريع الواصل ما بين القدس الغربية وتل أبيب، وتبدو بيوتها المتبقية كجواهر قلادة أُهملت مع الزمن، وصُقلت برياح التاريخ.

يعود تاريخ لفتا إلى أربعة آلاف عام مضت، وهي تطل على وادي سلمان ووادي الشامي، اللذين كانا، في أيام ازدهارهما، يزودان لفتا بالمياه الأساسية للإنتاج الزراعي فيها. ويُعتقد أنها بنيت في موقع "مي نفتواخ"، وهو ينبوع للمياه قريب من القدس، وهي لا تزال تنعم حتى الآن، بجدول مياه جارية، وببركة مياه صغيرة وهادئة في وسط القرية.

في سنة 1596، كان عدد سكان لفتا 396 نسمة، وأصبح بحلول سنة 1945، 2550 فلسطينياً أغلبيتهم من المسلمين، وكانوا يملكون 7780 دونماً من الأراضي الزراعية (الدونم يعادل 1000 متر مربع). وتشير السجلات الرسمية إلى أن عدد المنازل المبنية في القرية في سنة 1931 كان 410 منازل بناها سكان لفتا الفلسطينيون الذين استخدموا الحجر المقدسي الشهير المستخرج من مقالع الحجارة القريبة. وقد بُني بعض هذه المنازل بارتفاع طبقتين أو ثلاثة طبقات، وتبدو البيوت كأنها تشكيلات تكعيبية قائمة على السفوح الجبلية المنحدرة، وهي تمثل اليوم واحدة من أفضل النماذج لمهارة البناء والتصميم المعماري الفلسطينيين.

خلال فترة الأربعينيات من القرن المنصرم وحتى نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين في سنة 1948، توسعت لفتا شرقاً وشمالاً، بحيث أصبحت متصلة بمباني حي روميما الكائن في الجهة الغربية من القدس. كما أن روابطها الاقتصادية مع القدس أصبحت أكثر قوة باعتبار أن نصف مساحة الأراضي المحروثة في القرية كانت تُزرع بمختلف أنواع الحبوب، من القمح والشعير والزيتون، وبأنواع متعددة من الفواكه.

وخلال الفترة التي سبقت نكبة 1948، كان التنوع الطائفي في لفتا مؤلفاً من أغلبية مسلمة مع أقليتين مسيحية ويهودية، ونجم عن هذا التنوع إحساس قوي بالحياة المشتركة مع ترابط اجتماعي اختصت بهما لفتا. وتصف الوثائق بعض البيوت الكبيرة في لفتا بصفتها بيوتاً مشتركة بين اليهود والمسلمين الذين كانوا، في بعض المناسبات، يتبادلون المنتوجات المحلية كالجبن والحليب، علاوة على منتوجات أُخرى جاهزة للبيع في السوق المحلية. كما أن أطفال عائلات لفتا المنتمين إلى بيئات دينية متعددة، كانوا يترددون على المدارس نفسها، ويلهون في أوقات فراغهم في الملاعب ذاتها. وتميّزت لفتا بشبكة طرقاتها المتداخلة والمتقاطعة، الزاخرة بالأسواق والمقاهي بالإضافة إلى مخبز وصيدلية. وكان لسكان لفتا حق الدخول والاستفادة من مشفى العيون اليهودي المجاور، وبالتالي يمكن القول إن حياة مجتمع لفتا كانت مفتوحة وشاملة، ولم تكن حصرية وإقصائية. علاوة على ذلك، من المعروف أن سكان لفتا كان من عادتهم الاحتفال معاً بمناسباتهم الدينية في الساحة الرئيسية في القرية، وكانت المساجد المحلية هي المراكز الأساسية لمناقشة القضايا الاجتماعية والثقافية المطروحة في ذلك الوقت.

التطهير العرقي في لفتا

هذا السلم والتآلف الاجتماعي في لفتا انتهيا بشكل مأساوي عندما قامت عصابة شتيرن الصهيونية المسلحة، في 1947/12/28، بدخول مركز القرية، وقتلت بالرصاص ستة من سكانها، وجرحت سبعة آخرين، وذلك في أعقاب قرار الأمم المتحدة 181 الصادر في تشرين الثاني/نوفمبر 1947. وخلال عشرة أيام من تلك الحادثة تحولت لفتا إلى بلدة أشباح، إذ رحل سكان القرية المروّعين والبالغ عددهم في ذلك الوقت 2960 نسمة، وانتقلوا إلى القدس الشرقية حيث لا يزال معظمهم يعيش هناك إلى يومنا هذا. وقد تم لاحقاً تدمير عدد لا يستهان به من بيوت القرية، بالإضافة إلى مدرستين إعداديتين. وفقط بعد محاولة استرحام أخيرة ويائسة قام بها مندوبون محليون، تم الحفاظ على بعض البيوت من التدمير الشامل، وهي لا تزال قائمة إلى الآن.

كانت عملية تدمير لفتا مأساة حقيقية لكل سكانها من مختلف الديانات، وكانت "النكبة" فيها كارثة للمسلمين والمسيحيين واليهود على السواء. وقد قيل وقتها إن قبيلة "هيلو" اليهودية التي كانت تقطن أعالي التلال في لفتا، أعطيت الخيار للبقاء في القرية من طرف عصابة شتيرن الصهيونية، لكن أفراد هذه القبيلة قرروا الالتحاق بمواطنيهم "اللفتويين" في هجرتهم الجماعية، وغادروا بدورهم.

وخلال الأعوام التي تلت ترحيل سكان لفتا، استقر هؤلاء، في معظمهم، ومن تحدّر من صلبهم من أولاد

وأحفاد، في القدس ورام الله والضفة الغربية والأردن، بالإضافة إلى الولايات المتحدة حيث شكلوا رابطة قوية فيما بنيهم، وجالية ناشطة في ميتشيغان.

جمال لفتا الذي لا يغيب

حتى يومنا هذا، فإن البيوت المتبقية في قرية لفتا لا تزال تجذب عدداً لا يستهان به من الزوار المحليين، ومن المحترفين القادمين من أماكن أخرى، المأخوذين بجمال تصاميمها، وبأشكالها الأصلية، وبروعة المشهد الطبيعي المحيط بها. والسياح القادمون من الخارج يصلون في رحلات ينظمها أحد سكان لفتا الأصليين، وهو يعقوب عودة، الذي يروي لهم وبفخر، على الرغم من الألم الذي يشعر به، تاريخ قريته وصولاً إلى مأساة زوالها، مشيراً، بصورة خاصة، إلى أطلال البيت الذي عاشت فيه أسرته، والذي ساهم هو نفسه كطفل في عملية إعماره. وحتى الآن، فإن بعض "اللفتويين" ما زالوا يأتون من القدس شاقين طريقهم إلى أسفل الممر المتعرج والمدمر في اتجاه الساحة المفتوحة في القرية، حيث يمكنهم الجلوس إلى حافة البركة المائية، وملء قوارير هم منها بماء ربيعي صاف، وتبادل حكايات لا تنسى عن لفتا مع أولئك الراغبين في الاستماع. وإلى يومنا هذا أيضاً، فإن بيوت لفتا المهيبة تعرض واحداً من أكثر أشكال العمارة العربية جمالاً: القبة. ويزيد البيوت جمالاً تناغم أشكال البيوت المكعبة مع انحناءات السقوف المقببة.

ومن المعروف أن معماريي لفتا لم يستخدموا قط أي نوع من أنواع الملاط أو الأسمنت لإلصاق حجارتهم بعضها ببعض، إذ إن عملية البناء الجاف * كانت ممكنة من خلال التقنيات الدقيقة التي نفذها صنّاع الأحجار المهرة المحليون الذين قاموا بنحت أشكال حجرية نموذجية ودقيقة لبناء الأقواس، والزوايا القائمة، وزوايا خارجية للجدران، وأرباع الدوائر، والقناطر الكاملة والمتدرجة. كما أن معظم النوافذ في تلك المنازل المظللة بالقناطر الدقيقة اتخذ شكلاً مستطيلاً متسقاً ومن النوع الذي يمكن لمهندسي العمارة المعاصرين فقط أن يقدموه، لكن مرسوماً على حواسيبهم.

حتى الآن، ما زال قلب لفتا ينبض، وهو مستمر في النبض بفضل زيارة أهلها الأصليين لها.
حتى الآن.. فقط.

لقد أخذ المستوطنون اليهود المتطرفون يتحركون إلى داخل لفتا، في حين مُنع سكان لفتا الأصليون من دخولها. وفي محاولة أخيرة لما يمكن أن نسميه الاغتصاب المعماري، وللتأكد من أن بيوت لفتا المتبقية لن يسكنها أصحابها الأصليون مرة أخرى، بدأ المستوطنون بتدمير بعض تلك القبب الأنيقة، الأمر الذي جعل ما تحتها عرضة لعوامل الطبيعة الخارجية. وبالتدريج، توقف السياح عن النزول إلى أسفل التل لزيارة لفتا، وتعين على مرشديهم السياحيين الاكتفاء بالنظر إلى القرية من على جانب الطريق المشرف على المنحدرات المؤدية إلى القرية. ولم يلبث أن حضر مزيد من المستوطنين الهيبيين، واحتلوا البيوت من دون إذن. ولإكساب خطوتهم هذه نوعاً من الشرعية، بدأوا بتنظيم "حلقات دراسية دينية" في المكان بين الحين والآخر.

لفتا اليوم بلدة شبحيّة معلقة في الزمان، إلا إن بهاءها يبقى عصياً على الزوال، كما أنها تبقى رمزاً للدمار الذي أحاق بالقرى الفلسطينية خلال الاجتياح الصهيوني العسكري في سنة 1948. لقد صارت لفتا رمزاً للنكبة الفلسطينية، وهي في حالتها الراهنة تناشدنا أن نلتفت إليها، ونهتم بها.

الخطط الإسرائيلية للفتا

في حزيران/يونيو 2004، قامت لجنة التخطيط البلدي في القدس، وبمساعدة من مكتبَي هندسة معمارية، هما ج. كارتاس (G. Kartas) وس. جريج وس. أهرونسون (S. Grueg and S. Ahronson)، وبالتعاون مع زئيف تمكين من TIK Projects، بإنجاز مشروع خطة إعادة تطوير (أطلق عليها اسم "الخطة رقم 6036") لتحويل لفتا إلى ضاحية سكنية وتجارية فخمة مقتصرة على اليهود. وهذه الخطة التي لم توضع موضع التنفيذ بعد، والتي قُدمت أساساً في نيسان/أبريل 1984 بعنوان "الخطة رقم 2351"، حملت الاسم المثير والمخادع في آن: "ينبوع الوطنية". وقد تمت الموافقة على الخطة لاحقاً من طرف لجنة التخطيط المناطقية. وبذريعة الادعاء المضلل أنها مشروع لحفظ المكان، دعت الخطة إلى إنشاء 245 وحدة سكنية فخمة، ومجمّع تسوق كبير، ومنتجع سياحي، ومتحف، وفندق فخم يشتمل على 120 غرفة. وسيُدمّر معظم البيوت المتبقية من قرية لفتا لمحو أي أثر يذكّر بمجتمع فلسطيني كان مزدهراً في يوم من الأيام، حتى إن المقبرة الفلسطينية المجاورة للقرية لا تظهر في الخطة الجديدة؛ فليس كافياً أن اللفتويين الباقين في قيد الحياة لم يؤخذوا في الحسبان، ولم يستشرهم أحد فيما ستؤول إليه قريتهم، بل إن ذكرى أسلافهم ووجودهم المادي سيمحيان بدورهما أيضاً.

إن محاولة الطمس المعماري والثقافي في الاقتراحات المقدمة لإعادة تشكيل لفتا تجد ما يشبهها في اقتراح قدمه مركز سيمون ويزنتال، ومقرّه في لوس أنجلوس، لبناء "متحف التسامح" فوق جزء من مقبرة إسلامية في "ماميلا" التي لا تبعد كثيراً عن لفتا. وفي التفاتة مخجلة توهم باعتراف بالنسيج القائم فعلياً للقرية، فإن مشروع

إعادة تطوير لفتا يعتزم الحفاظ على بضعة بيوت من القرية سيتم تجديدها، لكن كي يسكنها يهود "الشتات" الأغنياء فقط. كما ستُترك بعض الأشجار وعدد من المعالم، كالينبوع وبضعة مصاطب، وستُجرى عليها تحسينات لا تتعدى كونها إيماءة ملأى بالتصنع وبتصور مستعار للذكريات.

أمّا تاريخ المجتمع الفلسطيني الذي ازدهر في لفتا فلن يتم إظهاره مطلقاً في خطط التطوير الجديدة، ولن يكون هناك أي سجل لتاريخ لفتا الفلسطيني كما يُفترض في أي مشروع لحفظ وتجديد أي مكان، من أجل ربط الحاضر بالماضي، بل إن حتى مسجد لفتا الأصلي سيكون مصيره الهدم لبناء كنيس مكانه. وإذا ما نُفذت هذه الخطة، فإنها لن تكون سوى محاولة مفضوحة لتهويد لفتا. وهكذا، فإن سلطات التخطيط الإسرائيلية، بقرارها إعادة تشكيل لفتا من خلال تخطيط عنصري وقوانين تنظيم استخدامات الأراضي التي سنّتها الدولة، تستمر في إلغاء وجود مجتمع من أجل إحلال مجتمع آخر مكانه.

وإذا سُمح لهذه السلطات بتنفيذ مخططاتها، فإن لفتا في هذه المسرحية الدرامية لن تعدو كونها أكثر من متحف لزوار ربما يكون، أو لا يكون بينهم، سكان لفتا الأصليون، ولأحفاد هؤلاء السكان الذين لن يكونوا سوى شخوص شبحية في هذه المسرحية الدرامية الجديدة. وعندما سيأتي هؤلاء الأحفاد للوقوف أمامها، لن يكون في قدرتهم إلاّ البكاء على روح لفتا الضائعة. أمّا سكان لفتا الأصليون، الذين يقيمون حالياً على بعد بضعة كيلومترات فقط من بلدتهم المحبوبة لفتا، فسيشعرون بأن هويتهم وحقهم في العودة إلى بيوتهم، سُرقا منهم.

خطط بديلة وإعادة اعتبار

من أجل إنقاذ لفتا من هذا المصير الكارثي، قامت مجموعة فلسطينية تحمل اسم: " 1948: حتى لا ننسى"، وبالتعاون مع جهات مهنية دولية، وحتى إسرائيلية معارضة للخطة التدميرية، بوضع خطط بديلة هدفها إعادة إعمار القرية بمبادرة من سكانها الأصليين، وبأيديهم، ومن أجلهم. وأطلقت في الوقت نفسه حملة متعددة الجنسيات للفت النظر إلى ما يُدبّر للقرية من تدمير إضافي ومحو لهويتها الفلسطينية وتشويه لجمالها الأصيل، ولاستنهاض كل مَن يمكن استنهاضه للمساهمة في حماية القرية من استكمال تدميرها، وللمشاركة في تمويل وإعادة الإعمار في حال نجاح الحملة.

وفي إطار هذه الحملة، أطلقت مجموعة " 1948: حتى لا ننسى" عريضة في موقعها الإلكتروني (www.1948.org.uk) لإنقاذ لفتا، واستطاعت الحصول على 2400 توقيع دولي من أشخاص من مختلف مجالات الحياة، بالإضافة إلى مجموعة من الشخصيات المعروفة في المجالات الأكاديمية والمعمارية والأدبية. وستكون هذه العريضة جزءاً من الالتماس الذي ستقدمه المجموعة إلى لجنة مراقبة النصب العالمية (The World Monuments Watch) من أجل إعلان لفتا مكاناً ذا طبيعة خاصة.

علاوة على ذلك، تنوي المجموعة إطلاق مسابقة معمارية دولية مع خلاصة مفتوحة (open ended brief)، وستقوم بدعوة معماريين ومخططين مرخصين من مختلف أنحاء العالم للمساهمة في تقديم أفكار من أجل إنجاز مخططات لبيت محدد من البيوت التي لا تزال قائمة حتى الآن في لفتا.

وستُعرض نتائج المسابقة في عدد من العواصم الرئيسية في العالم، وستكون أولى المحطات في لندن، حيث ستعقد في صيف سنة 2010 مؤتمرات، وتعرض أفلام، وتقدم عروض سمعية وبصرية، فضلاً عن مناقشات مفتوحة.

وختاماً أقول، يجب المحافظة على لفتا وإعادة بنائها بواسطة/ومن أجل أصحابها الأصليين، فهذا من شأنه أن يساعد في إبقاء التاريخ المأساوي لنكبة 48 حيّاً في الذاكرة. ولفتا، بصورتها الجديدة، يمكن أن تمهد الطريق لحملة متماسكة من أجل الحقيقة والمصالحة بين شعبين متنازعين، كما أنها تمثل الأصل الممكن تعقبه للوصول إلى رؤية منشأ الصراع، وإلى الاعتراف بالمأساة التي حدثت، وإلى فهم ما تعنيه هوية شعب لأبنائه. ■

(*) مهندس معماري، ومنسق عام لمجموعة " 1948: حتى لا ننسى".

(**) **ترجمة:** شكري الريّان.

(*) المقصود الطريقة المعروفة باسم (Dry Stone)، وهي طريقة في البناء تُبنى بواسطتها المنشأة من الأحجار فقط، ومن دون حاجة إلى مواد لاصقة لربط تلك الأحجار بعضها ببعض. والمنشأة هنا تكون متماسكة بفضل طريقتها الإنشائية الفريدة من نوعها، والتي يمكن تصورها من خلال الأقواس المعروفة في

الأبنية الحجرية القديمة حيث ثقل الأحجار المستند بعضها إلى بعض، ومن خلال زوايا تماس دقيقة، يغني عن الحاجة إلى مواد لاصقة. المترجم